مولديات لسان الدّين بن الخطيب

موضوعاتها و سماتها الفنيّة

أ- عـامـر نـوريـة

– جامعة تلمسان-

Among theses poems a from called appeared "el

mawlidiat "or "Aaidiat" which were written at the time of the festival of the birth of th prophet.

these "mawlidiats " are written in three parts:

1. love of the crowned places.
2. praises of prophets.
3. praises of organizing sultan of the festivities.

The greatest poetic personality of the 8 century of the hégire in enfdalousie was bnou el khatib which published six"mawlidiats " with the same stages quoted before.

المقال:

يعدُّ لسان الدّين بن الخطيب فخر الإسلام بالفردوس المفقود في العصر الغرناطي خلال القرن الثامن الهجري ، وقد اجتمعت فيه عبقريات متعدّدة فهو طبيب ماهر ، وفيلسوف حكيم ، ومؤرخ بارع وسياسي محنّك ، وكاتب قح ، وشاعر فذّ[1] . ترك للمكتبة العربية ستّ مولديات قالها في فترات حياته، رفع واحدة منها إلى أبي سالم المريني، تحتوي على خمسة وثمانين بيتا، ورفع ثلاثا منها إلى أبي الحجّاج ، وتشتمل على مائة وتسعة وسبعين بيتا ، ورفع اثنتين منها إلى الغنيّ بالله ، وتضمّان مائة وخمسين بيتا ، وتتكوّن المولدية عنده من مقاطع ثلاثة هي كالآتي :

المقطع الأول : يتضمن الحنين إلى الديّار المقدسة وقبر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم تارة، مع ما يتعلق به من وصف لملابسات تلك الرحلة المباركة ، والحنين إلى الشباب والزمن الماضي تارة أخرى ؛ ومن ذلك قوله في المقطع الأوّل من مولدية دالية رفعها إلى أبي سالم المريني سنة ثلاث وستّين وسبعمائة ، استهلّها بوصف لوعة الشوق إلى الأماكن المقدسة:

تألَّقَ نَجْدِيًّا فَأَذكَرَنِي نَجْدَا وهَاجَ لِي الشَّوقَ المبَرِّحَ و الوَجْدَا

وتَوَّجَ مِنْ نُوَّارِهَا قُنَنَ الـرُّبَا وَختَمَ مِنْ أَزْهَارِهَا القُضُبَ المُلْدَا

لسُرْعَانَ مَا كَانَت مَنَاسِفَ للصَّبَا فَقَدْ ضَحِكَتْ زَهْرًا ، وَقَدْ خَجِلَتْ وَرْدَا

بِلاَدٌ عَهِدْنَا فِي قَرَارَاتِهَا الصَّبَا يَقِلُّ لِذَاكَ العِهْدِ أَنْ يَأْلِفَ العِهْدَا

سَقَى اللهُ نَجْداً مَا نَضَحْتُ بِذِكْرِهَا علَى كَبِدِي إِلاَّ وَجَدْتُ لَهَا بَرْدَا[2]

وفي مولدية دالية أخرى رفعت إلى أبي الحجّاج ، نجد ابن الخطيب يكرّر فيها ما جاء في السابقة حيث افتتحها بالشوق والحنين إلى الحجاز ، مثوى الرّسول عليه الصّلاة والسّلام فيقول :

دَعَا عَزَمَاتي والمَطِيَّةَ وَالوَخْداَ و إِلاَّ فَكُفَّا الشَّوقَ عَنِّي و الوَجْدَا

وَلاَ تُصْلِيَا دَمْعِي بِتَجْرِيحِ مُقْلَتِي فَدَمْعِيَ مَقْبُولٌ عَلَى القَلْبِ مَا أَدَّى

أَلَمْ تَرَيَانِي كُلَّمَا هَبَّتِ الصَّبَا أَبُلُّ بِهَا مِنْ نَارِ لَوْعَتِيَ الخَدَّا

وَأَصْبُو إِلَى البَرْقِ الحجَازِّي كُلَّمَا أجَالَتْ أَكُفُّ الأُفْقِ فِي السحب الزَّنْدَا[3]

ويمزج في العيدية الآتية بين مدح الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ، والحنين إلى الدّيار التي عبثت بها يد الزمان، وقد استغرق المقطع الأوّل من هذه القصيدة حيزا كبيرا ، لأنَّ شاعرنا كان في صدد ذكر الأوطان والعهود فيقول :

هَاجَتْكَ إِذْ جِئتَ اللَّوى فَزَرُودَا ذِكْرَاكَ أَوْطَانًا بِهَا وعُهُودَا

عَاثَتْ بِهِنَّ يَدُ الزَّمَانِ فَلَمْ تَجِدْ أَعْلاَمُهُنَّ عَنْ العَفَاءِ مَحِيداَ
إِلاَّ مَوَاقِدَ كَالحَمَام جَوَاثِماً وَتَرَى بِأَظْلاَفِ الظِّبَاءِ كَدِيدَا
دِمَنٌ غُذِيتَ بِهِنَّ أَخْلاَفَ الهَوَى وَلَبِسْتَ رَيعَانَ الشَّبَابِ جَدِيدَا[4]

كما يصف في القسم الأول من الحائية ، ركب الحجيج المنطلق إلى زيارة قبر الرسول صلّى الله عليه وسلّم قائلا:

أَثَارَ سَنَاهَا والدِّيَارُ نَوَازِح سَنَا بَارِقٍ مِنْ مَطْلَع الوَحْي لاَئِحُ

رَكَائِبُ تَسْتَفُّ الفَلاَ فَكَأَنَّهَا سَفَائِنُ فِي بَحْرِ السَّرَابِ سَوَابِحُ

إِلَيْكَ رَسُولَ اللهِ شُدَّتْ نُسُوعُهَا وَغَادَرَهَا الإِدْلاَجُ وَهْيَ طَلاَئِحُ

تَحَمَّلْنَ مِنْ زُوَّارِ قَبْرِكَ فِتْيَةً تُوَاصِلُ فِي ذَاتِ الهُدى وَتُنَازِحُ[5]

وفي الميلادية الآتية نجد الشاعر يعرض أشواقه الملتهبة عرضا يمزج فيه بين الحنين إلى قبر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم والحنين إلى الشباب ، ويصرّح في قصيدته هذه أن أغلى أمنية عنده هي زيارة مثوى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم فيقول :

مَا عَلَى القَلْبِ بَعْدَكُمْ مِنْ جُنَاح أَنْ يُرَى طَائِراً بِغيرِ جَنَاح

وَعَلَى الشَّوقِ أَن يشبَّ إِذَا هَبَّ بِأَنْفَاسِكُمْ نَسِيمُ الصَّبَاح

جِيرَة الحَيِّ والحَديثُ شُجُونٌ واللَّيَالي تَلِينُ بَعدَ الجِمَاح

أَتَرَوْنَ السُّلُوَّ خَامَرَ قَلْبِي بَعْدَكُمْ؟ لاَ ، وفَالِقِ الإِصْبَاح

وَلَوَ أَنِّي أُعْطِي اقْتِرَاحِي عَلَى الأَيَّام مَا كَانَ بُعْدُكُمْ بِاقْتِرَاح[6]

أمّا المقطع الثاني من العيديات فقد خصَّ به مدح الرَّسول صلَّى الله عليه وسلّم ، وذكر معجزاته الباهرة، ومآثره وشمائله ، والخوارق التي صاحبت مولده ، والتّوسل به والتشوق إلى زيارة قبره ورجاء شفاعته ، والإفصاح بالعجز عن عدم الزيارة ، ومثاله قوله :

تَقَدَّمْتَ مُخْتَاراً ، تَأَخَّرْتَ مَبْعَثًا فَقَدْ شَمِلَت علْيَاؤُكَ القَبْلَ والبَعْدَا

وَعِلَّةُ هَذَا الكَونِ أَنْتَ وكُلَّمَا أَعَادَ فَأَنْتَ القَصْدُ فِيهِ وَمَا أَبْدَا

بِمَاذَا عَسَى يُثْنِي عَلَيْكَ مُقَصَّرٌ وَلَمْ يألُ فِيكَ الوَحْي مَدْحًا وَلاَ حَمْدَا
عَلَيْكَ صَلاَةُ اللهِ يَا خَيْر مُرْسَل وَأَكْرَمَ هَادٍ أَوْضَحَ الحَقَّ وَ الرُّشْدَا
بِمَوْلِدِكَ اهْتَزَّ الوُجُودُ وَأَشْرَقَتْ قُصُورٌ بِبُصْرَى ضَاءَتْ الهَضْبَ والوَهْدَا[7]

ونجده في مولدية أخرى ينوّه بليلة ميلاد النبي عليه الصّلاة والسلام، وما صاحبها من حوادث كتهدم إيوان كسرى ، وإخماد نار فارس ليخلص بعدها إلى مدح الرّسول صلّى الله عليه وسلّم فيقول :

وَفِي لَيلَةِ المِيلاَدِ أَكْبَرُ آيَةٍ تَخِرّ الجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ لَهُ هَدَّا

وصَيَّرَ أَوثَانَ الضَّلاَلَةِ خُضَّعًا إِلَيْهَا فَلَمْ يَتْرُكْ سُوَاعًا وَلاَ وُدَّا
وَعَاجَلَ بِالإِخْمَادِ نِيرَانَ فَارِسٍ فَلَمْ يُرَ للنِّيرَانِ مِنْ بَعْدِهَا وَقْدَا(8)

أمَّا فِي العِيدية الدَّالية فنجد شاعرنا يمدح الرَّسول عليه الصّلاة والسّلام قائلا :

إنّه لنور الذي محق الضلال ، وأظهر التوحيد فهو الملاذ الذي تطمع الخلائق في شفاعته يوم الحساب فيقول :

يَا مُصْطَفَى الرَّحْمَنِ والنُّورَ الذي أَخْفَى الضَّلاَلَ وَأَظْهَرَ التَّوحيدَا
المنْتَقَى مِنْ سِرِّ هَاشِمٍ فِي الذَّرا حَيْثُ اِسْتَقَرَّ مَدَى الفَخَار صُعُودَا
الخَلْقُ يَوْمَ العَرضِ جَاهَكَ تَعْتَفِي تَأْتِي عَلَى قَدَمِ الصِّغَارِ وُقُودَا
مُتَأَمِّلِينَ إِلَى الحِسَاب ذَوَاهِلاً مُتَهَيِّبِينَ المَوْقِفَ المَوْعُودَا

رَاجِينَ فِيهِ لَدَيْكَ فَضْلُ شَفَاعَةٍ وَمُؤَمِّلِينَ مَقَامَكَ المَحْمُودَا(9)

وفي القسم الثّاني من مولديته الحائيّة ، يقدّم الشّاعر العذر الذي أقعده عن زيارة قبر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم على الرّغم من شدّة شوقه إليه لينتقل بعد ذلك إلى مدح الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ، ذاكراً المعجزات الزّاهرات التي رافقت ميلاده فيقول :

حَنَانَيْكُمَا يَا صَاحِبَيَّ بِمُغْرَمٍ جَوَانِحُهُ نَحْوَ الحَجِيج جَوَانِحُ

أَقَامَ يُعَانِي الشَّوْقَ عَنْ قَدَرٍ وَمَنْ أَقَامَ عَلَى عُذْرٍ كَمَنْ هُوَ رَائِحُ
تَدَانَى هَوَى لَمَّا تَبَاعَدَ مَنْزِلاً فَهَا هُوَ دَانٍ ، فِي الزِّيَارَةِ نَازِحُ

وَهَا أَنْتَ يَا إِنْسَانُ عَيْن يَقِينِه بِرَوْضَةِ مَنْ حَازَ المَحَاسِن سَارِحُ
كَدَحْتَ إِلَى رَبِّ الجَمَالِ مُلاَقِيًا فَيَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحُ(10)

وهو لا ينسى في ميلاديته الحائية الأخرى أن يصف الركب المتجه ليلا إلى الأبطحي ومصطفى الكون فينعته بأفضل الخصال والصفات فيقول:

وَرِكَابٍ سَرَوْا وَقَدْ شَمَلَ اللَّيلُ بِمَسْحِ الدُّجى جَميعَ النَّواحي

وَكَأَنَّ الظَّلام عَسكَرُ زَنْج وَنُجُوم الدُّجى نُصُولُ الرِّماح

حَمَلَت مِنْهُمُ ظُهُورُ المَطَايَا أيّ جِدٍّ بَحْتٍ ، وَعَزْمٍ صُرَاحِ

مُصْطَفَى الكَوْنِ مِنْ ظُهُورِ النَّبِيئينَ هُدَاةِ الأَنَامِ سُبْلَ الفَلاحِ

حُجَّةُ اللهِ حِكْمَةُ اللهِ نُورُ اللهِ فِي كُلِّ غَايَةٍ و افْتِتَاح[11]

وفي القصيدة الميمية الأخيرة من مولديات لسان الدّين نجده يمدح سيّد الخلق ، سارداً الحوادث الّتي صاحبت مولده ، ومستأنسا في ذلك بكتب السيرة ، ناعتا إيّاه بالهادي الّذي هدى النّاس إلى الرّشاد ، والمرسل الذي أثنى عليه الله عزّ وجلّ في محكم تنزيله فيقول :

رَسُولٌ أَتَى حُكْمُ الكِتَابِ بِمَدحِه وَأثنى عليه اللهُ بالصِّدق والحِلْمِ

أَحَبُّ مِنَ المَحْيَا وأَجْدَى مِنَ الحَيَا وَأَهْدَى لمَنْ ضلَّ السَّبِيلَ مِنَ النَّجمِ
قَرِيعٌ صَمِيمُ المَجدِ فِي آل هَاشِم أُولِي القَسَمَاتِ الغُرِّ والأنُفِ الشُّمِّ
أَتَى رَحْمَةً وَالنَّاسُ فِي مُدْلَهِمَة يَرُوحُونَ في غَيٍّ وَيَغْدُونَ في إِثْمِ[12]

ويخلص لسان الدّين بن الخطيب في المقطع الثالث والأخير من المولدية إلى مدح السلطان أو الوزير الذي رفعت الميلادية إليه ، ومن ذلك مدح السلطان أبي سالم المريني في عيدية دالية كما في قوله :

أَبَا سَالم دِينُ الإِلهِ بِكَ اعْتَلَى أَبَا سَالِم ظِلُّ الأَمَانِ بِكَ امْتَدَّا

فَدُمْ مِنْ دِفَاعِ الله تَحْتَ وِقَايةٍ كَفَاكَ بِهَا أَنْ تَسْحَبَ الحِلَقَ السَّرْدَا
وَلَوْ تَرَكَتْ مِنِّي اللَّيالي صَبَابَةً لأَجْهَدْتُهَا رَكْضًا وَأَرْهَقْتُهَا شَدَّا
وَلَكِنَّهُ جَهْدُ المُقِلِّ بَذَلْتُهُ وَقَدْ أَوضَحَ الأَعْذَارَ مَنْ بَلَغَ الجَهْدَا[13]

وينهي الشاعر مولديته الدالية الأخرى بمدح السلطان يوسف بن إسماعيل ، معددا خصاله ومحامده ومنوّها بشجاعته ، ووقُوفِهِ في وجهِ الفرنجة غزاة الأندلس فيقول :

إِمَامٌ أَفَاضَ اللهُ في الأرض عَدْلَهُ فَأَوشَكَ فِيهَا الضِدُّ أَن يَأْلَفَ الضِّدَّا

أَقَامَ عَلَى حُبِّ النَّبِيِّ وآلِهِ وَأُشْرِبَ تَقْوَى رَبِّهِ الحَلّ والعَقْدَا

أَيُوسُفُ يَا حَامِي الجَزِيرَة حَيْثُ لاَ نَصِيرٌ ، وَمُصْلِي بَأْسِهَا الضُمَّرَ الجُرْدَا

أَفَاضَ عَلَيْهَا اللهُ مُلْكَكَ دِيمَةً وَرَوَّى ثَرَاهَا مِنْكَ مُنْسَكِبًا عَهْدَا

فَمُلْكُكَ فِيهَا مَا أَجَلَّ جَلاَلُهُ وَسَيْفُكَ مَا أَسْطَى وَكَفُّكَ مَا أَنْدَى(14)

ويعمدُ الشاعر أيضا في آخر مولدية حائية أخرى إلى مدح يوسف بن إسماعيل بالسماحة والكرم والشجاعة ، قائلا :

فَمَنْ مِثْلُ مَوْلاَنَا الخَليفةِ يُوسُفٍ إِذَا عدَّدَ الفَخْرَ المُلُوكُ الجَحَاجِحُ
أَيَادِيهِ سَحَّتْ في الوَرَى بَرَكَاتُهَا فَأَيَّامُهُمْ بِيضُ اللَّيَالِي صَوَالِحُ

إِمَامَ الهُدَى يَا خَيْرَ مَنْ بَذَلَ اللَّهَى وَشَادَتْ عُلاَهُ المَعْلُوَاتُ الصَّرَائِحُ
وَإِنْ رُوِيَتْ عَنْهُمْ عَوَالِي عَلاَئِهِمْ فَآثَار عُلْيَاكَ الحِسَانُ الصَّحائِحُ(15)

كما يختم مولدية أخرى بمدح محمد بن الحجاج ، لأنّهُ هو من أقام ليلة الميلاد وأحياها ، فهو ليث العدا ، وغيث السماح ، وسراج النَّادي ، ومصباح الأرض ، ونور دجاها ، يقول :

بِمَعَالِي مُحَمَّدٍ بْنِ الحَجَّاجِ لَيْثِ العِدَا أو غَيثِ السَّمَاح

يَا سِرَاجَ النَّادِي وَحَتْفَ الأَعَادِي وَعِمَاد المُلْكِ الكَرِيم المَنَاح
وَخَفَضْتَ الجَنَاحَ فِي الأَرْضِ حَتَّى لَمْ تَدَعْ فَوْقَ ظَهْرِهَا مِنْ جُنَاح
أَنْتَ مِصْبَاحُهَا ونُورُ دُجَاهَا دَافَعَ اللهُ عَنْكَ مِنْ مِصْبَاح(16)

ونجد ابن الخطيب ينوّه في المولدية الميمية بليلة ميلاد الرَّسول صلّى الله عليه وسلم ، ومدح من أحياها ، فهو التقيّ الذي حذا حذو الأوّلين ، واقتدى بالماضين من الصالحين في نصرة الإسلام والدّين :

فَللَّهِ مِنْهَا لَيْلَةٌ بَرَكَاتُهاَ سَحَائِبُهَا تَنْهَلُّ بالنِّعَم ، العُمِّ

أَشَادَ أَمِيرُ المُسْلِمِينَ بِذِكْرِهَا فَأَحْيَا سَبِيلاً دَارِسًا لأُولِي العِلْمِ

تَقِيٌّ حَذَا حَذْوَ الخَلاَئِفِ واقْتَدَى بِهِم مِثْلُ مَا خَطَّ الكِتَابُ عَلَى الرَّسمِ

فَيَا نَاصِرَ الإِسْلاَمِ دُمْ فِي حُلَى العُلاَ وَجَارُكَ في أَمْنٍ ، وَقُطْرُكَ فِي سِلْمِ[17]

يتبيّن من خلال استعراض مولديات لسان الدّين بن الخطيب ، أنّها تدور حول أنماط قيمية أربعة هي كالآتي : الاجتماعية ، والدّينية ، والسياسية ، والذاتية .

أ – القيم الاجتماعية :

ويقصد بالقيم الاجتماعية مجموعة القيم الإنسانية والخلقية ، والنفسية والعقلية المستمدّة من المجتمع العربي ، والتي اهتدى إليها الشعراء وتوارثوها جيلا بعد جيل[18]. وقد تفنّن الشعراء في تعداد الفضائل الأربع التي ذكرها قدامة بن جعفر، والمتمثلة في الشجاعة والعقل والعدل والعفّة[19]؛ مثل أن يذكروا الحماية ، والأخذ بالثأر ، والدفاع عن الجار ، وهي من أقسام العدل[20] ، وفي مولديات متفرقة نجد ابن الخطيب قد مدح ممدوحه بالعدل ، ذاكرا بأنّ عدله أفاضه الله في الأرض ، قائلا :

إِمَامٌ أَفَاضَ اللهُ فِي الأَرْضِ عَدْلَهُ فَأَوْشَكَ فِيهَا الضِّدُّ أَنْ يَأْلَفَ الضِّدَّا[21]

وقوله أيضا :

يَمِينًا لَقَدْ قَرَّت بِدَوْلَتِكَ الرِّضَا عُيُونٌ بِرَوضِ العَدْلِ مِنْكَ سَوَارِحُ[22]

وقوله من أخرى :

مَحَّضَ اللهُ مِنْكَ يَاقُوتَةَ المُلـ كِ وَيَنْبُوعَ العَدْلِ وَالإِصْلاَحِ[23]

ومن الفضائل الواردة في مولديات ابن الخطيب : السخاء والكرم ، وهي فضيلة وجدت بكثرة في قصائده ، ومن ذلك قوله:

وَإِنِّي بِنُعْمَاكَ الّتِي مَلأَتْ يَدِي فَأَصْبَحْتُ مِنْ إِحْسَانِهَا وَافِرَ القَسْمِ[24]

وقوله أيضاً :

أَيَادِيهِ سَحَّتْ فِي الوَرَى بَرَكَاتهَا فَأَيَّامُهُمْ بِيضُ اللَّيَالي صَوَالِحُ[25]

كما ذكر ابن الخطيب خلّة الشجاعة التي اتّصف بها الممدوح في مثل قوله :

إِذا مَا أَرَادَ الصَّعْبَ أَغْرَى بِنَيْلِهِ صُدُورَ العَوَالِي والمُطَهَمَةَ الجُرْدَا[26]

وقوله أيضا :

أَيُوسُفُ يَا حَامِي الجَزِيرَة حَيْثُ لاَ نَصِيرٌ ، وَمُصْلِي بَأْسِهَا الضُّمَّر الجُرْدَا[27]

وقد جمع بين خلّتي الكرم والشجاعة في بيت واحد كما في قوله :

فَمُلْكُكَ فِيهَا مَا أَجَلَّ جَلاَلُهُ وَسَيْفُكَ مَا أَسْطَى وَكَفُّكَ مَا أَنْدَى[28]

كما ذكر فضائل أخرى ، كنصرة الحق والدّين ، والرأي المسدد ، مثل قوله :

فَدُمْ نَاصِرًا للدِّين مَا حَنَّ نَازِحٌ وَمَا افْتَنَّ فِي غُصْنِ الأَرَاكَةِ صَادِح[29]

وقوله من قصيدة أخرى :

نَاصِرُ الحقِّ ، مُرسِلُ النَّقْعِ سُحْبًا بَيْنَ سُمْرِ القَنَا وَبِيضِ الصِّفاحِ[30]

وقوله أيضا :

فَيَا نَاصِرَ الإِسْلاَمِ دُمْ فِي حلى العُلاَ وَجَارُكَ فِي أَمْنٍ ، وقُطرُكَ فِي سِلْمِ[31]

وقوله من أخرى :

أَبَا سَالِم دينُ الإِلهِ بِكَ اعْتَلَى أَبَا سَالِم ظِلُّ الأَمَان بِكَ امْتَدَّا[32]

ب – القيم السياسية :

هي تلك التي تتضمّن شؤون الحياة السياسية في المجتمع الغرناطي سواء أكانت في الداخل أم في الخارج ؛ فأما داخليا : فبالقضاء على الثائرين ، وإخضاع المتمرّدين ، ونشر روح التعايش السّلمي ، وبسط

الأمن والأمان في المجتمع . وأما خارجيا : فبالتصدّي للخطر المسيحي الدّاهم ، وقد نوه الشعراء بهذه القيم المتّصلة بالقوّة والشجاعة ، والفروسية والبطولة ، وجسّدوها في ممدوحيهم مسجلين كثيرا من أحداث الغارات الخارجية ، والثورات الدّاخلية ، مشيدين بسياسة الحكام والقادة في ميدان السّلم والسلام ، ومن ذلك قول ابن الخطيب :

وَقَامَ بِأَمْرِ اللهِ يَحْمِي حِمَى الهُدَى فَيَكْفِي مَنْ اسْتَكْفَى وَيُعْدِي مَنِ اسْتَعْدَا فَدُمْ
مِنْ دِفَاعِ اللهِ تَحْتَ وِقَايَةٍ كَفَاكَ بِهَا أَنْ تَسْحَبَ الحِلقَ السَّرْدَا(33)

وقوله :

مَازَالَ فِي الإِسْلاَمِ مِنْهُمْ أَيِمَّةٌ تُنَاضِلُ عَنْ دِينِ الهُدَى وَتُكَافِحُ(34)

ج – القيم الذاتية :

هي التعبير عن مشكلات الفرد الخاصة ، وتصوير آماله ومطامحه الشخصية ، وبثّ آلامه النفسية وعواطفه وهمومه ؛ كقساوة الدهر ، وظلم الزمان ، ونكبات الحياة وأهوالها ، وهي النزعة نجدها واضحة في مولديات ابن الخطيب ، فمن ذلك قوله :

قَدْ غَزَتْنِي الخُطُوبُ غَزْوَ الأَعَادِي وَبَرَتْنِي الهُمُومُ بَرْيَ قِدَاحِ(35)

وقوله من عيدية أخرى :

وَقُلْتُ لِجَفْنِي إِنْ دُعِيتَ لِعَبْرَةٍ فَسَاعِدْ بِهَا مَطْلَ الغَنِيِّ مِنَ الظُّلْمِ(36)

وقوله من أخرى :

طَمَعَ الشَّيْبُ باللِّجَامِ المُحَلَّى حِينَ أَجْرَيْتُ أَنْ يُرَدَّ جِمَاحِ(37)

وقوله أيضا :

أَسَفِي كَمْ أُرَى طَرِيدَ ذنُوبٍ أَوبَقَتْنِي فَلَيْسَ لِي مِنْ سَرَاحِ(38)

د – القيم الدّينية :

لقد حظيت القيم الدينية باهتمام شعراء بني الأحمر ، فتضمّنت مولدياتهم القيم المثالية التي خلعوها على ممدوحيهم بدءاً بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم ، وانتهاء بالحكّام ، فوصفوهم بالإيمان والتقوى ، والزهد في الدنيا والتّحلي بطاعة الله تعالى والإنابة إليه ، وحسن الظنّ به ، وقد شحنت مولديات ابن الخطيب بكثير من هذه القيم ، فمن قوله :

رَسُولٌ مِنَ الرَّحْمَن يَدْعُو إِلَى الهُدَى وَيَدْعُو إِلَى دَارِ السّلاَمَةِ وَالسِّلْمِ(39)

وقوله من أخرى :

قَرِيعٌ صَمِيمُ المَجْدِ فِي آلِ هَاشِمٍ أُولِي القَسَمَاتِ الغُرِّ والأُنُف الشُّمِّ(40)

وقوله أيضا :

رَسُولُ البَرَايَا جَاءَ بِالصِّدقِ فامَّحَتْ بِنُورِ هُدَاهُ التُّرهَاتُ الصَّحَاصِحُ(41)

وقوله في مدح السلطان :

أَقَامَ عَلَى حُبِّ النَّبِيِّ وَآلِهِ وَأُشْرِبَ تَقْوَى رَبِّهِ الحَلَّ والعَقْدَا(42)

وقوله أيضا :

تَقِيٌّ حَذَا حَذْوَ الخَلاَئِفِ واقْتَدَى بِهِم مِثْلَ مَا خَطَّ الكِتَابُ عَلَى الرَّسمِ(43)

ترجحت قصيدة المديح في الأندلس في بنائها الفنّي بين طريقتي القدماء والمحدثين اللّتين سادتا معا في الأندلس (44)، بحيث ظهر أثر الأولى في المحافظة على البناء ، على حين بدا أثر الثانية واضحا في مضمون هذا البناء ، بالإضافة إلى أن الشاعر الأندلسي لم يلتزم مذهبا واحداً فبينما هو يقلّد أبا نواس وينهج نهجه ، نراه يعارض المتنبّي أو المعرّي ، ويبدع على طريقته بما لا يتبع طريقة واحدة(45).

ج – بناء المولدية :

بنيت المولدية الغرناطية بصفة عامة على ثلاثة عناصر: مقدمة وتخلص وخاتمة .

لقد حظيت مقدمة القصيدة باهتمام النقاد العرب القدماء ، وأوّل ما سجّله هؤلاء النقاد من ملاحظات ما ذكره ابن قتيبة(ت– 276م) حول نهج القصيدة العربية ، وتحديد أقسامها المختلفة التي

لابدّ أن يسلكها الشاعر، من حيث ضرورة بدء القصيدة بمقدمة تشتمل على ذكر الأطلال ، ثمّ الغزل لاستمالة القلوب نحوه واستدعاء الأسماع إليه ، ثم وصف الرحلة وما تجشمه من النصب والسهر[46] . ويتبع ابن رشيق القيرواني(ت– 456هـ) ابن قتيبة في هذا الرأي ، فيرى ضرورة التمهيد بين يدي القصيدة بمقدمة ، ويعيب على الشعراء الذين يهجمون على أغراض القصائد مكافحة ، ولا يجعلون لكلامهم بسطا من النسيب ، ويسمي قصائدهم إذا كانت على هذه الحال بتراء[47].

افتتح لسان الدين بن الخطيب مولدياته بالحنين إلى الدّيار المقدّسة ، ومثوى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، والشباب والزمن الماضي ؛ فمن حنينه إلى الدّيار المقدسة قوله :

تَأَلَّقَ نَجْدِيًّا فَأَذْكَرَنِي نَجْدَا وَهَاجَ لِي الشَّوقَ المُبَرِّحَ وَالوَجدَا
وميض رَأَى بُرْدَ الغَمَامَةِ مُغْفَلاً فَمَدَّ يَدًا بِالتِّبْرِ أَعْمَلَتِ البُرْدَا[48]

كما نجده يستهلّها بالمقدمة الطللية ، لكنّه يطرح كثيرا من مقوّمات هذه المقدمة وتقاليدها الموروثة ، فلم يطل الوقوف على الدّيار بل وصفها وصفا عاما بالتبدل والتغير ، وما تثيره تلك الرّسوم في نفسه من ذكريات ماض سعيد تمتزج فيه اللّذة بالألم والمتعة بالحزن[50] ومن ذلك قوله :

هَاجَتْكَ إِذْ جِئتَ اللَّوى فَزَرُودَا ذِكْرَاكَ أَوْطَانًا بِهَا وعُهُودَا

عَاثَتْ بِهِنَّ يَدُ الزَّمَانِ فَلَمْ تَجِدْ أَعْلاَمُهُنَّ عَنْ العَفَاءِ مَحِيداَ
إِلاَّ مَوَاقِدَ كَالحَمَام جَوَاثِمًا وَتَرَى بِأَظْلاَفِ الظِّبَاءِ كَدِيدَا[50]

اهتمَّ الشعراء الأندلسيون في عصر بني الأحمر بتحسين تخلصهم من مقدمات مدائحهم إلى موضوع المديح الذي يقصدونه ، وقد نوّه النقاد والبلاغيون بضرورة عناية الشاعر بالانتقال من مقدمة القصيدة إلى الغرض الرئيس الذي نظمت من أجله ، بحيث يحسن التخلص في تدرج وتلطف من قسم إلى قسم آخر حتّى تلتقي هذه الأقسام المكوّنة لقصيدة المديح التقاء ممتزجا محكما دون أي اختلال في نسق الكلام أو النظم[51]. وإذا تأملنا التخلص في مولديات ابن الخطيب فإنّنا نجده يمهّد لمديح السلطان بأبيات لا تتجاوز الأربعة، ينوّه فيها بليلة ميلاد المصطفى عليه الصلاة والسلام ثمّ يخلص إلى مدح السلطان أو الوزير الذي أحياها ، وإذا نظرنا إلى التخلص في المقدّمة والقسم الذي يليها نجده في افتتاحيته يصف حنينه وشوقه إلى المعاهد المقدّسة وقبر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ، ثم يخلص بعدها إلى المدح بأدوات الربط مثل: كأنّ ، المخفّفة أو الثقيلة والكاف والواو والفاء ، وأساليب الشرط والقصر ، والاستفهام... ومثال التخلّص الأول قوله :

فَللَّهِ مِنْهَا لَيْلَةٌ بَرَكَاتُهاَ سَحَائِبُهَا تَنْهَلُّ بالنِّعَم ، العُمِّ

أَشَادَ أَمِيرُ المُسْلِمِينَ بِذِكْرِهَا فَأَحْيَا سَبِيلاً دَارِسًا لأُلِي العِلْ

وآثر تَقْوَى اللهِ مِنْهَا فَلَمْ يَكُنْ بِمُشْتَغِلٍ عَنْهَا بِزِير وَلاَ بم

تَقِيٌّ حَذَا حَذْوَ الخَلاَئِفِ واقْتَدَى بِهِم مِثْلَ مَا خُطَّ الكِتَابُ عَلَى الرَّسمِ[52]

كما اهتمّ النقاد بخاتمة القصيدة اهتماما لا يقلّ عن اهتمامهم بالمطلع والتخلّص ، واشترطوا ضرورة تضمين خواتيم القصيدة حكمة بالغة أو مثلا سائرا، أو تشبيها مليحا على نحو ما يلمَح من خواتيم القصائد التي استشهد بها أبو هلال العسكري ، وعدّها حسنة جيّدة[53].

وليس أقدر على إثارة انفعالات الممدوح من الدعاء له بالخير المقترن غالبا بالتنويه بأفضاله الكثيرة وأياديه البيضاء ؛ ومن خواتيم لسان الدّين بن الخطيب التي يقول فيها مادحا السلطان يوسف بن إسماعيل :

فَدُمْ نَاصِرًا للدِّين مَا حَنَّ نَازِحٌ وَمَا افْتَنَّ فِي غُصْنِ الأَرَاكَةِ صَادِح[54]

ينطوي مفهوم الصورة في مجال النقد الأدبي الحديث على عدة رؤى فنية متباينة متأثرة بفلسفات المذاهب الأدبية ، فلم يعد محصورا في الشكل المجازي[55] ، الذي يستعمل فيه اللفظ في غير ما وضع له في الأصل مع قرينة تدلّ على إرادة المعنى الذي وضع له[56] ، بل تجاوزها ليشمل كلّ تشكيل لغوي يستقيه خيال الفنان من معطيات الحواس والنفس والعقل[57] ؛ والصورة هي لب الشعر ، بل هي الشعر ذاته ، وليست شيئا يضاف لتزيين المعنى ، بل هي جزء أصيل من المعنى ، وأيّ تغيير يعتريها يبدل المعنى[58] ، وقد تكون مجموعة من الألفاظ ، كما قد تكون لفظا واحداً ، ويمكن أن يقال إنّ القصيدة مجموعة من الصور[59]. والصورة هي نتاج دراسة الظواهر والأشياء دراسة فنيّة ، وليست نتيجة تصويرها الفوتوغرافي[60] ، وإذا تعرضنا لطبيعة الصورة في مولديات ابن الخطيب نجدها ترتكز على المجاز ، ولعلّ أهمّ الصور التي ألحت على خيال لسان الدّين ابن الخطيب في تلك الحقبة وتردّدت في مولدياته ، صورة الكرم وما يتفرّع عنها ، فقد أخذ يتفنّن في صوغها في عدّة أشكال مختلفة حتّى يكسوها ثوب الجدّة والطرافة ، مثل ما صاغه في مدح الغني بالله ، منوّها بالنعم التي يتلقّاها في كنفه.

وَإِنِّي بِنُعْمَاكَ التِّي مَلأَتْ يَدِي فَأَصْبَحْتُ مِنْ إِحْسَانِهَا وَافِرَ القَسْم[61]

وقوله أيضا عند مدحه ليوسف بن إسماعيل :

فَمَنْ مِثْلُ مَوْلاَنَا الخَلِيفَةِ يُوسُفٍ إِذَا عَدَّدَ الفَخْرَ المُلُوكُ الجَحَاجِحُ
أَيَادِيهِ سَحَّتْ فِي الوَرَى بَرَكَاتهَا فَأَيَّامُهُمْ بِيضُ اللَّيَالي صَوَالِحُ[62]

ومن الصور الأخرى الطريفة التي حظيت باهتمام لسان الدّين وألحَّ في طلبها صورة الممدوح القائد الشجاع في ساحة القتال ، وما يتصل بها من وصف الحرب ، وموكب الغزو ، مثال ذلك ما قاله في مدح يوسف بن الحجّاج :

أَيُوسُفُ يَا حَامِي الجَزِيرَة حَيْثُ لاَ نَصِيرٌ ، وَمُصْلِي بَأْسِهَا الضُّمَّر الجُرْدَا[63]

وقوله أيضا :

بِمَعَالِي مُحَمَّدٍ بْنِ الحَجَّاجِ لَيْثِ العِدَا أو غَيثِ السَّمَاح[64]

ومن الصور الأخرى صورة الممدوح العادل الذي نشر العدل في ربوع الجزيرة الأندلسية كما في قوله :

مَحَّضَ اللهُ مِنْكَ يَاقُوتَةَ المُلْكِ وَيَنْبُوعَ العَدْلِ وَالإِصْلاَحِ[65]

لقد أكثر ابن الخطيب من الصور البلاغية في مولدياته ؛ فمن ذلك التشبيه ، وهو صفة الشيئ بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو من جهات كثيرة لا من جميع الجهات[66]. والتشبيه قياس ، والقياس يجري فيما تعيه القلوب وتدركه العقول وتستفتي فيه الأفهام والأذهان ، لا الأسماع والآذان[67] فقد شبّه ابن الخطيب الركائب القاصدة قبر الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالسفائن السريعة المبحرة في بحر السّراب.

رَكَائِبُ تَسْتَفُّ الفَلاَ فَكَأَنَّهَا سَفَائِنُ فِي بَحْرِ السَّرَابِ سَوَابِحُ[68]

وقد شبّه معجزات الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بالبروق التي تظهر جليّة واضحة في الآفاق البعيدة.

لَهُ المُعْجِزَاتُ الزَّاهِرَاتُ كَأَنَّهَا بُرُوقٌ بِآفَاقِ اليَقِينِ لَوَائِحُ[69]

وشبه الشباب بالطيف السريع في ذهابه واختفائه :

فَكَأَنَّ الشبَابَ طَيْفُ خَيَالٍ أَوْ وَمِيضٌ خبا عَقِيبَ التِمَاح[70]

ومن الصور البلاغية أيضا الاستعارة ، وهي من استعار الإنسان من آخر شيئا ، بمعنى أنّ الشيء المستعار قد انتقل من يد المستعير للانتفاع به ، ومن ذلك يفهم أن عملية الاستعارة لا تتمّ إلا بين متعارفين تجمع بينهما صلة ما[71] .

وعرّفها البلاغيون بأنّها ضرب من التشبيه وهي أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي المعروف تدلّ الشواهد على أنّه اختصَّ به حين وضع ، ثمّ يستعمل في غير ذلك الأصل ، وينتقل إليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالعارية[72] ، أي استخدام كلمة في غير معناها الحقيقي لعلاقة المشابهة مع قرينة ملفوظة أو ملحوظة تمنع إرادة المعنى الحقيقي[73] ، ويكمن فضل الاستعارة في أنّها تفعل في نفس السّامع ما لا تفعله الحقيقة ، ومن الاستعارات الموجودة في عيديات ابن الخطيب قوله :

وَسَقَتْنِي كَأْسَ الفِرَاقِ دِهَاقًا في اغْتِبَاقٍ مُوَاصَل باصْطِبَاح[74]

ومن الظواهر السياقية التي تميزت بها مولديات ابن الخطيب تأثر لغتها بالبيئة الطبيعية والحربية التي عاش بين جنباتها ، وما يلفت النظر في هذه اللّغة خلوّها من التعقيد والغموض ، فاختفت الألفاظ الغريبة التي كان يستخدمها الشعراء القدماء ، كما ابتعدت عن الألفاظ الفخمة ذات الصخب والقعقعة ، وليس غريبا أن يستمدّ ابن الخطيب من الطبيعة مفردات يوظّفها في مولدياته ، لأنّ الطبيعة كانت عنده وعند غيره من الشعراء الأندلسيين مصدرا مهمّا في تجاربهم الإبداعية ، ومن المفردات المستمدّة من الطبيعة قوله :

وَتَوَّجَ من نُوَّارِهَا قُنَنَ الرُّبَا وَخَتَّمَ مِنْ أَزْهَارِهَا القُضُبَ المُلْدَا

لسُرْعَانَ مَا كَانَتْ مَنَاسِفَ للصَّبَا فَقَدْ ضَحِكَتْ زَهْرًا ، وَقَدْ خَجِلَتْ وَرْدَا[75]

وقوله من أخرى :

وَعَلَى الشَّوْقِ أَنْ يَشُبَّ إِذَا هَبَّ بِأَنْفَاسِكُمْ نَسِيمُ الصَّبَاح[76]

كما تأثرت لغة مولديات ابن الخطيب بالبيئة الحربية ، وصراعاتها التي اقتبس ألفاظها

مثل قوله :

فَدُمْ مِنْ دِفَاعِ اللهِ تَحْتَ وِقَايَةٍ كَفَاكَ بِهَا أَنْ تَسْحَبَ الحِلقَ السَّرْدَا[77]

واستلهم في لغة مولدياته أيضا ألفاظ القرآن الكريم ، لإثراء تجربته الشعرية بإيحاءات الرمز الدّيني وتأثيره ، وبخاصة إذا أراد إسقاط القيم الدينية على ممدوحه ، فتنوّعت طرق التوظيف القرآني عنده ما بين الإشارة إلى اسم السورة أو تضمين ألفاظها ومعانيها ، ومثال ذلك قوله :

مَثَّلَ اللهُ نُورَهُ فِي المَثَانِي بِمِثَالِ المِشْكَاةِ وَالمِصْبَاحِ(78)

فقد اقتبس ابن الخطيب هذا البيت من قوله تعالى : **{ اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْض }** سورة النور الآية 34.

كَدَحْتَ إِلَى رَبِّ الجَمَالِ مُلاقِياً فَيَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحُ(79)

اقتبس عجز البيت من قوله تعالى : **{ يَاأَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا }** سورة الانشقاق ، الآية 6 .

ومن توظيفه لألفاظ القرآن الكريم قوله :

مُصْطَفَى الرَّحْمَنِ والنُّورِ الذِي أَخْفَى الضَّلاَل وَأَظْهَرَ التَّوْحِيدَا(80)

وقوله:

صَاحِبُ المُعْجِزَاتِ لاَ يَتَمَارَى العَقْلُ فِي آيِهَا الحِسَان الصِّحَاح(81)

وقوله أيضا :

مُظْهِرُ الوَحْي مُطْلِعُ الحَقِّ مَعْنَى الخَلْقِ فَتْحُ المُهَيْمِنِ الفَتَّاح(82)

واستخدم ابن الخطيب مصطلحات علم الميراث في مولدياته ، فقد ذكر الإرث ، والوصية في بعض قصائده مثل قوله :

وَللَّهِ مَاذَا خَلَّفُوا مِنْ خَلِيفَةٍ حَوَى الإِرْثَ عَنْهُمْ والوَصِيَّةَ والعَهْدَا(83)

ولا ينسى ابن الخطيب أن يذكرنا بأنّ له معرفة بالسياسة فيتّخذ من ألفاظها مادّة لبعض صوره ، فيذكر الحل والعقد في قوله :

وَأَقَامَ عَلَى حُبِّ النَّبِيِّ وآلِهِ وَأُشْرِبَ تَقْوَى رَبِّه الحَلَّ والعَقْدَا[84]

ونلمح في مولدياته كذلك أثر علم الفلك الذي يذكر بعض ألفاظه لإثراء تجربته الشعرية مثل : النّجوم ، والكون ، وشفق الضّحى كما في قوله :

كَأَنَّ الظَّلاَمَ عَسْكَرُ زِنج وَنُجُوم الدُّجى نُصُول الرِّماح[85]

وقوله :

مُصْطَفَى الكَوْنِ مِنْ ظُهُورِ النَّبِيئِين هُدَاة الأَنَام سُبْل الفَلاَح[86]

وقوله :

فَحُلَّتُهَا الحَمْرَاء مِن شَفَقِ الضّحَى نَضَاهَا وَحَلَّ المُزْنُ مِنْ جِيدِهَا عَقدا[87]

لقد عمد الكثير من الشعراء إلى تكرار الألفاظ والمعاني ، ذلك لأنّ التكرار يزيد المعنى تألقا وتأكيدا[88] وتكرار المعاني والألفاظ والأفكار في مولديات ابن الخطيب ظاهر للعيان ، فهو لا يقف عند تكرار الفكرة أو اللفظة أو الصورة ، بل يعيد البيت كاملا أحيانا في مولديتين متفرقتين ، ويظهر ذلك في قوله :

وَهَبَّ العليلُ اللَّدْنُ مُسْتَشْفِيًا بِهَا فَكَانَ الدَّوَاءُ البان ، الشِيحَ ، والرَّنْدَا[89]

فقد كرّر معنى هذا البيت في قصيدة أخرى إذ يقول :

إِذَا مَا النَّسِيمُ اعْتَلَّ فِي عَرَصَاتِهَا تَنَاوَلَ فِيهَا البان ، والشِيحَ وَالرَّنْدَا[90]

وكرّر البيت الآتي بعينه في قصيدتين متفرقتين :

لِي اللهُ كَمْ أَهْذِي بِنَجْدٍ وَحَاجِزٍ وأُكني بِدَعْدٍ فِي غَرَامِيَ أَو سُعْدى[91]

لقد تنوّع تكرار الألفاظ عند لسان الدّين في مولدياته فمن ذلك تكراره للألفاظ في صدر البيت وعجزه مثل قوله :

لَمْ تَدَعْ لِي مِن السِّلاَحِ سِوَى مَغْفَرِ شَيْبٍ أَهْوِن بِهِ مِنْ سِلاَح[92]

وقوله أيضا :

وَلاَ تُصَلِيَا دَمْعِي بِتَجْرِيحِ مُقْلَتِي فَدَمْعِي مَقْبُولٌ عَلَى القَلْبِ مَا أَدَّا[93]

ويرى ابن الخطيب أنّ الشاعر لا يكون مجيداً إلاّ إذا كانت لهُ مقدرة على استعمال البديع ، ولذلك نراه يعتني به كلّ العناية ، وفي مولدياته الكثير من الزخارف اللفظية والمحسنات المعنوية من جناس ، وطباق ، وتصريع ، ونظير ، وازدواج. والجناس هو التشابه بين لفظين في الإيقاع مع اختلافهما في المدلول ، فإنّ اتّفق اللفظان في نوع الأصوات وعددها وترتيبها وهيئتها الحاصلة من الحركات والسكنات كان التجانس تاما ، والإيقاع متطابقا ، وإن اختلف اللفظان في واحدة من الأربعة المتقدمة كان التجانس ناقصا والإيقاع مختلفا[94] ، فنجد الكثير من الجناس بنوعيه التام والناقص في مولدياته ، فمن الجناس التام بين لفظتي (جَناح و جُناح) وبين (الخُطب والخَطب) في قوله :

مَا عَلَى القَلْبِ بَعْدَكُمْ مِنْ جُنَاحِ أَنْ يُرَى طَائِراً بِغَيْرِ جَنَاحِ[95]

وقوله :

وَ تُنْجِبُ مِنْ أَبْنَائِهَا كُلَّ نَاصِرٍ يَفُلُّ شَبَاةَ الخَطْبِ والخَطْبُ فَادِحِ[96]

ومن الجناس الناقص بين كلمتي (الوخدا والوجدا) وبين (أجدى وأندى) في قوله :

دَعَا عَزَمَاتِي وَالمَطِيَّةَ وَالوَخْدَا وَإِلاَّ فَكُفَّا الشَّوْقَ عَنِّيَ وَالوَجْدَا[97]

وقوله أيضا :

تَدَارَكْهُ يَاغَوْثَ العِبَادِ بِرَحْمَةٍ فَجُودُكَ مَا أَجْدَى وَكَفُّكَ مَا أَنْدَى[98]

ومن المحسنات التي حفلت بها عيديات لسان الدين بن الخطيب ، التصريع ، وهو ظاهرة بديعية وظفها الشاعر في مولدياته لإثراء المعجم الإيقاعي بالتجانس الصوتي ، الذي ينشأ بين المقاطع في نهاية كل مصرع من البيت ، وما ينجم عن تكرار الصوت من أثر سمعي يشدّ انتباه المتلقي ويؤثر في نفسه ، ومن ذلك التصريع بين لفظتي (جُنَاح وجَنَاح) وبين (الوخدا والوجدا) في قوله :

مَا عَلَى القَلْبِ بَعْدَكُمْ مِنْ جُنَاحِ أَنْ يُرَى طَائِراً بِغَيْرِ جَنَاحِ[100]

وقوله أيضا :

دَعَا عَزَمَاتِي وَالمَطِيَّةَ وَالوَخْدَا وَإلاَّ فَكُفَّا الشَّوْقَ عَنِّيَ وَالوَجْدَا[101]

ومن المحسنات المعنوية التي شحنت بها مولديات ابن الخطيب التضاد وهو الجمع بين الشيئ وضده في جزء من أجزاء الرسالة ، أو الخطبة ، أو بيت من بيوت القصيدة[102] ، وقد اعتمد عليه ابن الخطيب في إقامة علاقات جديدة بين مفردات اللّغة تعكس صورة العلاقات القائمة بين الأشياء في الكون والطبيعة ، وقد ألحّ لسان الدّين على التضاد في مولدياته ، ومن ذلك قوله :

وَأَنْتَ مَلاَذُ الخَلْقِ حَيّاً ومَيِّتًا وَأَكْرَمُهُمْ ذَاتًا وَأَعْظَمُهُمْ مَجْدَا[103]

فقد طابق بين كلمتي (حيًّ وميِّتٍ)

وقوله أيضا :

تَقَدَّمْتَ مُخْتَارًا ، تأخَّرتَ مَبْعَثًا فقدْ شَمِلَتْ عَلْياؤُكَ القَبْلَ وَالبَعْدَا[104]

فقد طابق بين (تقدّمت وتأخرت) وبين (القبل والبعد). وأمّا الازدواج فقد تنوّع في مولديات الشاعر ، منه ما جاء مسجوعا رباعي الفاصلة مثل قوله :

فَكَمْ مُعْتَدٍ أَرْدى ، وَكَم تَائِهٍ هَدَى وَكَم حِكْمَةٍ أَضْفَى ، وَكَمْ نِعْمَةٍ أَبْدَى[105]

ومن المحسنات البديعية النظير، وهو ما قابل نظيره في جنس أفعاله وهو متمكن منها[106] ، واعتمد لسان الدين على توظيف هذه الظاهرة السياقية لإثراء الصورة المدحية ، ومن ذلك قوله :

وَتَوَّجَ مِنْ نُوَّارِهَا قُنَنَ الرُّبَا وَخَتَّمَ مِنْ أَزْهَارِهَا القُضُبَ المُلْدَا[107]

فقد ناظر بين كلمتي (نوارها وأزهارها) . ومن الزخارف التي حفلت بها مولديات لسان الدّين ، المقابلة ، وهي إيراد الكلام ، ثمّ مقابلته بمثله في اللفظ أو المعنى ، على جهة الموافقة أو المخالفة[108] ، وكان اعتماد ابن الخطيب على المقابلة كبيرا شأنها شأن الألوان البلاغية الأخرى ، فمن ذلك قوله :

فَسَرَى الخِصْبُ فِي الجُسُوم الهُزَالَى وَ جَرَى الرِّسلُ فِي الذُّرُوعِ الصِّحَاح[109]

لقد تعانقت الظواهر الفنية من تجانس وتضاد ، وتصريع ونظير ، وازدواج ومقابلة ، ولغة متأثرة بالبيئة والموروث التاريخي والدّيني والثقافي لتشكل الخصائص الفنية لمولديات لسان الدّين بن الخطيب ، التي عبّر من خلالها عن تلك العاطفة الدّينية نتيجة بعده عن المرابع المقدّسة وتعذر وصوله إليها ، نظرا للظروف القلقة التي عرفتها الأندلس في أغلب مراحل تاريخها .

هوامش الدراسة:

1- المقدمة ، عبد الرحمن بن خلدون ، تح ، محمد الاسكندراني ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، 2006 ، ص 189 .

2 – الصيب والجهام والماضي والكهام ، لسان الدين بن الخطيب ، تح ، محمد الشريف قاهر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط1 ، 1973 : 471 – 473

3- الديوان : 470 – 480

4- نفسه : 484 – 485

5- نفسه : 367

6- نفسه : 389

7 – نفسه : 476 – 487

8-نفسه : 483

9- نفسه : 486

10 نفسه : 367 – 368

11- نفسه : 390 – 391

12نفسه : 576 – 577

13 – نفسه : 479

14- نفسه : 484

15- نفسه : 370

16- نفسه : 392

17- نفسه : 578

18- الفن والمجتمع ، هربرت ريد ، ترجمة ، فارس متري ضاهر ، دار القلم ، بيروت ، ط1 ، 1975 ، 143

19- نقد الشعر ، قدامة بن جعفر (أبو الفرج) ، تح ،كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ط3 ، 1979 ، 65

20- منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، أبوالحسن حازم القرطاجني :125.

21- الديوان ، لسان الدين بن الخطيب : 484

22- نفسه : 371

23. نفسه : 393

24. نفسه : 578

25- نفسه : 370

26- نفسه : 479

27- نفسه : 484

28- نفسه : 484

29- نفسه : 371

30- نفسه : 392

31- نفسه : 578

32- نفسه : 479

33- نفسه : 479
34- نفسه : 370
35- نفسه : 392
36- نفسه : 575
37- نفسه : 392
38- نفسه : 392
39- نفسه : 578
40- نفسه : 576
41- نفسه : 368
42- نفسه : 484
43- نفسه : 576
44- تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ، إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت ، ط2 ، 1969 45- تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ، محمد رضوان الداية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط2 ، 19 46- الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، تح ، أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، 1966 ، 1 : 75
47- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، دار المعرفة ، بيروت ، ط1 ، 1988 ، 1 : 231 48- الديوان ، لسان الدين بن الخطيب : 165
49- قصيدة المديح في الأندلس ، محمود أشرف نجا ، دار الوفاء ، اسكندرية ، ط1 ، 2002 : 134
50- الديوان ، لسان الدين بن الخطيب : 484 – 485
51- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، ناجي مجيد عبد الحميد ، مؤسسة الجامعية للدّراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1 ، 1984 : 102
52- الديوان ، لسان الدين بن الخطيب : 572
53- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ج1 : 217
54- الديوان ، لسان الدين بن الخطيب : 371
55 – الصورة الشعرية ، سيسل دي لويس ، ترجمة أحمد نصيف الجنابي ، دار الرشيد ، العراق ، دط ، 1982 : 23
56- المعجم الميسر في القواعد والبلاغة والإنشاء ، ضناوي محمد أمين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1999 : 234
57- الصورة في الشعر العربي حتى القرن الثاني الهجري ، البطل علي ، دار الأندلس ، بيروت ، ط1 ، 1980 : 30
58- قصيدة المديح في الأندلس ، المرجع السابق ، أشرف نجا محمود : 197
59- الأدب وفنونه ، إسماعيل عز الدين ، دار الفكر ، القاهرة ، ط7 ، 1978 ، 145
60- مقدمة في علم الأدب ، مرغي فؤاد ، دار الحداثة ، بيروت ، ط1 ، 1981 ، 22
61- الديوان ، لسان الدين بن الخطيب : 578
62- نفسه : 370
63- نفسه : 484
64- نفسه : 392
65- نفسه : 393
66- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ج1 ، 488
67- أسرار البلاغة ، الجرجاني عبد القاهر ، تح محمد الفاضلي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، دط 2003 : 20
68- الديوان ، لسان الدين بن الخطيب : 367
69- نفسه : 368

70- نفسه : 389

71- علم البيان ، عتيق عبد العزيز ، دار النهضة العربية ، بيروت ، دط ، دت ، 166

72- أسرار البلاغة : 27

73- البلاغة في ثوبها الجديد ، علم البيان ، بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط1 1982 : 112

74- ديوان ابن الخطيب : 389

75- نفسه : 472

76- نفسه : 389

77- نفسه : 479

78- نفسه : 391

79- نفسه : 367

80- نفسه : 486

81- نفسه : 391

82- نفسه : 391

83- نفسه : 478

84- نفسه : 484

85- نفسه : 390

86- نفسه : 391

87- نفسه : 472

88- التطور والتجديد ، عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، بيروت ، ط1 ، 1992 : 653

89- الديوان : 481

90- نفسه : 472

91- نفسه : 474

92- نفسه : 389

93- نفسه : 479

94- شرح الكافية البديعية ، الحلي صفي الدين ، تح ، نسيب نشاوي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، دط ، دت : 61

95-الديوان : 389

96- نفسه : 370

97- نفسه : 479

98- نفسه : 475

99- شرح الكافية البديعية : 188

100- الديوان : 389

101- نفسه : 471

102- شرح الكافية البديعية : 72

103- الديوان : 481

104- نفسه : 476

105- نفسه : 479

106- الفروق في اللغة ، أبو هلال العسكري ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط3 ، 1979 ، 147

107- الديوان : 472

108- الإيضاح في علوم البلاغة والمعاني والبديع ، القزويني الخطيب (جلال الدين أبو عبد الله) دار الكتب العلمية ، بيروت ، دط ، دت ، 335 .